القهوة والدم

رواية

بقلم/ عبدالرحيم إبراهيم

إهداء

إلى كل مهتم بالأمر

مقدمة

هذه الوريقات بطلتها هي فلها كل الاحترام وإلى كل من تُشابهها. "إذا وجدت تشابهًا في الأسماء أو تشابه واقعك مع القصة فاعلم أنك واهم " أعلم أن ما بين القوسين ممل لكنها الحقيقة.

(1)

تناهي إليه وقع خطواته على الدرج وهو يمضي خارجًا. يمور بخاطره الحوار الذي دار قبل قليل. عنف نفسه. كم كنت قاسيًا! ماذا لو أخبرتها بحقيقة غيابي بل ماذا لو أخبرتها بحقيقة مشاعري؟ ماذا لو غازلتها؟ قطع تفكيره صوت عربة فصاح..

تاااااكسي؛ لو سمحت أريد الذهاب إلى محطة القطار.

السائق: تفضل.

يستغرق المشوار قرابة الساعة. الجو بارد. عندها بدأ يسائل نفسه لماذا أنا متوتر؟ هل خوفًا من أن لا أعود؟ أم نتيجة ما دار بيننا قبل قليل؟ بل منذ سنوات كنت فيها المحب الصامت ليتني أخبرتها أنها جميلة كصباح ليلة ممطرة بل كمدينتنا المكتظة وهي خاوية في عطلة عيد، نعم هي جميلة كطفلتنا المرحة وكأنها تسألني الآن مادمت تحبها لماذا لم تودعها؟ لا أدري لكني تعودت الحب في صمت والتفجع ايضًا في صمت.

على متن القطار غمره رضًى لم يعرف مصدره، صوت عجلاته المنتظم يجعلك تسترخي وتطلق العنان في دعة. وفجأة تذكر الرسالة أخرجها من جيب سترته الداخلية وبدأ يقرأ في ضوء القطار الخافت.

سري للغاية: لقد دخل العدو (دولة..... التي تناصبنا العداء منذ عقود) حدود الوطن الرجاء الحضور بأقصى سرعة إلى الشمال. خُتمت الرسالة باسم قائد الفرقة وفي ذيل الورقة مكتوب استدعاء للمدنيين المدربين. وفور ختام قراءة الرسالة فاجأه سؤال لماذا لم يذكر اسم المنطقة بالتحديد؟ لا بأس ربما وجدت دليلاً في المحطة.

يراوده ذلك السؤال مجددًا ماذا لو أخبرتها، أكنت أخاف أن تحزن وماذا لو حزنت؟ وتساقط بعض اللؤلؤ من عينيها؟ ليتها تسمع هذه الكلمات ، ربما سكنت روحها وخبت أوار قلبها المشتعل. أحس به يحرقني كلما نظرت إليها. قطع شروده بائع المشروبات الغازية وهو يتجول ويصيح بأعلى صوته دون أن يكترث إليه أحد فالجو بارد. شعر بالدفء قليلًا استرخى جسده للنوم فجأة صاح بائع المشروبات الساخنة خذ الشاي . خذ القهوة. ظل يعرض بضاعته حتى مر من أمامه. وبدأ صوته يختفي شيئًا فشيئًا إلى أن اختفى في ممر القطار. حاول أن يسترخي مجددًا لم يستطع فقد ذكرته القهوة حوارًا قديمًا دار بينهما عندما سألته عن غرابة العلاقة بينهما منذ أن تزوجا. عندها ابتسم ابتسامة بنكهة الألم قبل أن يرد عليها أنها كالقهوة. ضحكت إذذاك ظنته يمزح أو يتهرب. لم يشأ أن يفسر حينها قوله ولكنه سخيٌ بالكلمات عندما يكون وحيدًا. لا يدري كم لبث شارد الذهن. لم يشعر بنفسه إلا وقد دخلت ساعات الفجر الأولى وقد وصل القطار إلي الشمال المشتعل. أنت السيد أحمد عثمان؟ سؤال جاءه من شخص يقف قرب باب عربة القطار التي يستقلها، كيف عرفه؟ كيف عرف رقم العربة؟ أسئلة تبادرن إلى ذهنه قبل أن يجيب: نعم.

الرجل: تفضل اصعد إلى تلك العربة.

كانت هنالك مجموعة من تنتظر أسفل العربة التي لم تكن سوى ناقلة جند كبيرة. صلوا الفجر واعتلوها جميعًا. في أثناء الرحلة بدأت معالم البلاد تضح كلما توغلوا شمالًا كان شكل البلاد يتغير والظاهر للعيان شئ واحد الفقر. عرفه أحمد من تلك المباني الهشة وأشباه العراة الذين يجولون في الطرقات بأجساد هزيلة. وفي خضم تفكره بحال هؤلاء البشر حمد الله على . ثم ما لبث أن تذكرها. لفه شعور مسيطر بضرورة الاتصال بها الآن، لعلها تضحك الآن إذا سمعت هذا الكلام وحُق لها أن تضحك فهو لا يذكر

متى اتصل بها في سفره. لديه كثير من اللامبالاة في التعامل مع الهاتف أو المشاعر. لا يدري ما دافعه لهذا الاتصال هل الإحساس بالذنب أم بالموت بطلقة طائشة أو قذيفة أو حتى نيران صديقة. أخيرًا عدل عن فكرة الاتصال خاف عليها من خوفها. لم يرد أن يعمق جراحها فهو - على عكس ما يبدو- يحبها. ما أشبه حاله معها بالبطيخة تبدو قوية خشنة صلبة من الخارج بينما تفعم حلاوة ورقة من الداخل. أدخل هاتفه أوقف التفكير هنيهة. كاد أن يسقط من العربة عندما أوقفها السائق وكأنه نسي شيئًا. استغرق ثوان حتى تذكر أن هذه هي قيادة الجنود.

وصلوا معسكر المتطوعين الذي فصل عن معسكر الجيش. اصطف المتطوعون داخل المعسكر ذي الساحة الضخمة التي تتخللها أشجار وتحيط بها مجموعة كبيرة من الخيام . بدأ الصباح البارد يغادر وتشتد الشمس. عندها صدع صوت: السلام عليكم مرحبًا بكم في ساحة الأبطال وحقيقة لا وقت للكلام فالحرب بدأت فعلًا وقريبًا إن شاء اللّه ستعرفون كل شئ فأرجو من الجميع الاستعداد وشكرًا. ثم قال مستدركًا كل ثلاثة أفراد في خيمة. ختم الضابط كلامه وبدأ المشرف بتوزيع الأفراد على الخيام.

(2)

رن الهاتف ... السلام عليكم

وعليكم السلام كيف حالك يا خديجة.

خديجة: أريد مقابلتك في أقرب وقت.

هو: غدًا في العيادة بعد الساعة الثالثة.

علم (علي) ماذا تريد أخته خديجة فحال صديقه الوحيد و"حميه" أحمد لا يسر، كما أنه صدق رسالة تخبره بعدو ما اجتاح حدود البلاد. لم يخبرها يوما أن زوجها جاءه مستفهما عن حالته النفسية. ظل علي يستدعي تفاصيل ذلك اللقاء إلى ذاكرته المرة تلو المرة. كان لقاءً لا يشخص في الذاكرة يبقى فيها لا يريم.

علي: ما بك يا أخي؟

زفر أحمد زفرة عميقة حتى ظن علي أن روحه خرجت معها. صمتا لحظات قبل أن يبدأ أحمد بسرد ما يشعر به.

طرقات على الباب كفيلة بأن يصحو علي من شروده لم يكن الطارق سوى مسجل عيادته النفسية يريد الذهاب بعد انتهاء المقابلات.

(3)

أنا كمال آدم من الشمال متزوج ولدي طفلان. أعمل في الرعي،وأنت ما اسمك؟ أحمد عثمان متزوج ولدي طفلة قادم من الولاية الوسطى أعمل مهندسًا. التفتا إلى ذالك الشخص ذي اللحية الخفيفة يبدو عليه أنه صغير السن والنحول وكثير الشرود. نظر إليهما ثم خفض بصرة إلي الأسفل وقال: اسمي ياسر. وخرج من الخيمة. تبادلا النظرات باستغراب ثم شرعا في مزيد من التعارف حتى انتهي بهم الحديث إلى أحوال الشمال. تكلم كمال هامسًا: أتعرف يا مهندس هناك شائعات تقول إن الأعداء ليسوا جنود الدولة الجارة بل هم متمردون من أبناء الشمال وقائدهم يسمى عمر الإدريسي. دُهش أحمد من هذا الكلام هذا كلام لا يصدق. رد كمال أنا مثلك كنت استبعد هذا الكلام لكن هناك شواهد حدثت في الآونة الأخيرة جعلت من الأمر احتمالًا واردًا. لم يحتج كمال لأحد ليدفعه للإفصاح فقد بدأ يسرد ما جري في الشمال في الآونة الأخيرة شاخصًا ببصرة ناحية مخرج الخيمة الذي يتسلل عبره ضوء خافت فقد بدأت الشمس تحزم حقائب الرحيل والشمال على موعد مع الظلام.

قبل أسبوع بدأت السلطات في تتبع محادثات عائلة الإدريسي ومعارفه كما بدأت فعلًا باعتقال بعض أفراد قبيلته كما فرض طوق أمني على مقر قبيلة الإدريسي. أما عن الدولة الجارة فقد التقيت بعض الأفراد المرابطين على الحدود وأكدوا لي أن لا مشاكل في الحدود مع جيش الدولة الجارة منذ زمن. صمت كمال بعد أدخل شكوكًا في قلب أحمد الذي بدأ يفكر في خطورة هذا الكلام إن صح. هل يمكن أن يكون حقيقة؟ ثم أخذ يحلل الواقع من خلال بعض الملابسات. عندها اجتاحته أسئلة كان يغفل عنها أو يتغافل عنها ؟ إذا كانت فعلًا هذه الدولة قد احتلت بعض المناطق الحدودية داخل البلاد لماذا هذا التعتيم الإعلامي؟ لماذا لم يتم إعلان التعبئة العامة؟

صمت قليلا ثم فكر في موقفه إذا كان هذا الكلام صحيحًا هل سوف أقاتل إخواني المسلمين؟ يجري فينا دم واحد رضعنا من ثدي واحد وفي لحظة شرود غلبه النوم.

(4)

وضع مسجل العيادة كوبين من القهوة على الطاولة وانصرف وأغلق الباب خلفه عندها أزاحت خديجة حجابها عن وجهها الجميل ذي التقاسيم الطفولية. مزيج من البراءة والمرح إلا أن عليًا بحكم معرفته بأخته لم تخفَ عليه لمحة الحزن التي في عينيها ، ولم يدر أنها ليست فقط في عينيها ولكنها متجذرة في أعماق قلب أخته الصغرى. لطالما كان لها بمثابة الأب بعد وفاة والدهما.

نظر إلى أخته وكأنه بصمت وكأنه يقول لها (أفصحي عما ما في داخلك). لم تتردد هي: أحمد سافر ولا أعلم كم سيمكث؟ أو لماذا ذهب؟ فقط قال إني ذاهب إلى الشمال و أوشكت أن تفرغ حمل قلبها المكلوم بحب من يعشق محبوبًا لا يأبه به ومع ذلك يمضي في حبه حتى أضحى القلب مزعة من ألم لا يخبو ولا يزول، لكن الحياء منعها أطرقت رأسها واحمر ووجهها من الخجل.

بفراسته علم ما تريد قوله فسألها سؤالًا لطالما أراد أن يطرحه عليها منذ أمد وهاهو قد جاء الوقت المناسب: هل صرح لك يومًا بحبه؟

ازداد وجهها احمرارًا قبل أن تنفي بحركة رأسها ثم استطردت: ولكن ..... ثم صمتت.

ابتسم علي قبل أن يقول لها وأنا أيضًا أعلم أنه يحبك حبًا لا شك فيه ولكني أشك في أمر ما.

قالت بخوف: تشك في ماذا؟

عدل من جلسته مخاطبًا أخته: لا تظني يا خديجة أنك فقط من يعاني، أحمد أيضًا يعاني. لا أخفي عليك أنه جاءني هنا قبل سنة تقريبًا وحكي لي ما بداخلة وأنت تعرفين أنه صديقي منذ الطفولة. أعرفه جيدًا. هو طيب القلب ولو لم يكن أهلًا للزواج بك في نظري لما زوجتك به. قاطعته قبل أن يكمل: أخفتني ما الخطب؟

رد سريعًا: لا تخافي الأمر ليس ذا خطر أنا أشك في إصابته (Alexithymia) أو نقص الانسجام النفسي وقبل أن تقلقي هذه حالة ضعف في القدرة على التعبير عن المشاعر والتعلق الاجتماعي، وأصحاب هذا المرض يجدون صعوبة في التمييز بين مشاعر الآخرين، ويجب أن تعلمي أن المصابين به ليسوا قساة بالعكس بل لديهم حساسية مفرطة، وهذه النقطة الأخيرة تنطبق على أحمد تمامًا كما تعلمين، ومضى يشرح الأعراض.

(5)

اصطف الجنود في ميدان المعركة؛ الآليات الثقيلة في الجهة الأمامية والمشاة خلفهم. يتكون المشاة من أفراد و متطوعين ولا زال أحمد يتذكر تعليمات الخطة " سوف تلتحم الآليات الثقيلة مع العدو ودور المشاة يكمن في تأمين المهاجمين ومنع تسلل العدو خلفهم وكذلك دخول مناطق العدو بعد تدميرها بالآليات الثقيلة والقضاء على كل من تبقى فيها ". نظر أحمد إلى يده وجدها مكبلة مع يد كمال قبل أن يسأل عن سبب التكبيل توجه القائد نحوهما قائلًا؛ أنتما رفضتما القتال هيا اركبا في تلك العربة. كانت تلك العربة من عربات الدفع الرباعي تحمل مدفعًا. أمر القائد بفك قيدهما . وجد أحمد نفسه في العربة يمسك بحبل المدفع إما أن يجر الحبل ويقتل إخوانه أو يرفض فتستقر رصاصة في صدره تعلن نهاية حياته. صرخ أحمد بصوت عالي لن أقاتل ..... لن أقاتل. عندها أمر القائد الجندي قائلًا؛ اسكت هذا الخائن. رفع الجندي سلاحه نحو هذا المهتاج كالثور. أطلق رصاصة نحو صدر أحمد وهو ما يزال يصرخ قبل أن يمسك به ياسر وهو يوشك أن يسقط من على السرير. ما بك يا أحمد؟ انتفض أحمد جالسًا. يل له من حلم مفزع. أوشك أن يحكي لياسر ولكنه أمسك عن الكلام. فهم ياسر أن أحمد مرتاب فيه. منذ أول يوم اجتمعوا فيه كان ياسر قد قرر أن يفضي إليهما بسره. ناول أحمد كوب ماء ثم بادره بالقول؛ يا أحمد أنا من الشمال لم أكمل تعليمي الجامعي لحاجة أهلي لي عملت في مهن كثيرة منها البناء والرعي وقيادة السيارات. سمعت نقاشاتك حول الشمال. أحب أن أقول لك إنك خدعت كما خدعت الحكومة الشعب كله فلا أحد دخل حدود الوطن وأن قائد هذا الحراك من أبناء هذه المنطقة. قد يكون تصرفه خطأ لكنه شهد معاناة والظلم الذسي يحيق بهم دون ذنب اقترفوه سوى رفضهم لمرشح الحزب الحاكم في كل انتخابات تقوم فكان جزاؤهم للشمال كله

إفقار ًا وتشريدًا وممارسات يعف اللسان عن ذكرها. ولا شك أنك لحظت الفرق بين الوسط والشمال حتى يظن أنهما في دولتان مختلفتان لا صلة بينهما. ثم صمت ياسر وبهت أحمد؛ من الذي يقف أمامي ؟ هل هذا الرجل لم يكمل تعليمه؟ أحس أحمد بالدهشة والحزن. انتابته جملة من الأحاسيس لم يستطع أحمد الاستقرار على أي منها. تركه ياسر على تلك الحالة وهم بالخروج من الخيمة دون أن يسمع تعقيبه أمام مخرج الخيمة رجع ياسر إلى أحمد قائلًا: لا ترجع إلى النوم تبقى دقائق لآذان الفجر. خرج ياسر وعم الهدوء الخيمة لم يعكره سوى صوت شخير كمال الخفيف بين الحين والآخر وصوت زفيف الرياح في الخارج.

(6)

بعد صمت طويل لم تدر كم دام ، سألت وهي على شفا الالتياع: ما هي أسباب هذا المرض؟

رد علي متعجلًا وكأنه كان ينتظر هذا السؤال: كما قلت لك هم غالبًا أشخاص لهم حساسية مفرطة وتقول الدراسات إن الإهمال العاطفي للطفل قد يقود لهذه الحالة أو المرض في الكبر حيث يشعر الطفل أن مشاعره غير مرغوب فيها أو غير مقبولة فبدفنها في أعماقه ثم يفقد السيطرة عليها في الكبر أو يجد صعوبة في إخراجها أو حتى تمييزها في بعض الأحيان. قبل أن تتكلم خديجة رن هاتفها: إنها أمي يبدو أن أمل بدأت في البكاء هيا إلى البيت.

قال علي: لم تخبريني أنك عندنا اليوم.

خديجة: نسيت.

ثم أردفت خديجة: لا أريد لأمي أن تعلم شئًا مما دار بيننا اليوم.

علي: حاضر. كان سعيدًا بهذه الجملة الأخيرة لطالما حلم بزوجة مثل أخته تتحمل الألم والحزن. في السيارة شرد ذهن خديجة تفكر في زوجها الغائب. ومضى علي يفكر :هل يخبرها بحقيقة سفر زوجها الذي ذهب يلتمس الشهادة على يد عدو مزعوم. أخيرًا أعرض عن إخبارها حتى تستفيق من صدمة مرضه المشكوك فيه. ضاع علي في تفاصيل أخرى ثم اضمر أن يتصل بصديقه اليوم.

(7)

عند الظهيرة كان أحمد وكمال يتكلمان و ياسر كعادته صامت فجأة اقتحمت قوة (ضابط وجنديان) الخيمة وطوق بعض الجنود الخيمة، قال الضابط بصوت حاد من منكم ياسر جمال؟ اتجهت عيون أحمد وكمال صوب ياسر الذي تلقى نظراتهما بابتسامة تحمل في طياتها كثيرًا من الأسف والاعتذار . لم يحرك ساكنًا ولم يقاوم وكأنه كان ينتظرهم قبل أن يهب واقفًا وبصوت الواثق الثابت: أنا ياسر وهذه حقيبتي.

أمر الضابط بالقبض على كل من في الخيمة حشروا في عربة توجهت بهم إلى خارج المعسكر مع كل أمتعتهم وفرضت حراسة مشددة على الخيمة. في العربة كان كمال خائفًا متوترًا وياسر صامدًا كأنه قد من صخر وجهه لا ينبيء عن شيء، بينما أحمد تجتاحه التساؤلات والذكريات وخاصة ذلك اليوم الذي فتح فيها باب المنزل ولم تشعر به وجدها مستلقية على الأريكة شاردة تسيل الدموع منها على ذلك الخد المتورد. لم يلق عليها السلام إذ لم يرد أن يقطع عليها شرودها ودموعها. دخل دورة المياه لا لشئ سوى الهرب من تلك الدموع التي آلمت قلبه كسهام تخترقه. يعرف انه لم ينتهرها يومًا ولم يزعجها بكلامه بل أكثر ما يزعجها صمته القاتل، إذن ماذا تريد؟ تساءل بيد أنه كان يعلم الإجابة فقد أخبرته أنها تريد أن يسيل الحب بينها أنهارًا وعيونًا ولا يكفيها أن يكون موجودًا بجسده فقط قربها لكنه صلب جامد كجليد القطب الشمالي. خرج من دورة المياه وجدها قد نامت جال في قلبه أن يذهب لعلي عله يجد الدواء عنده، قطع شروده صوت صفير قادم من بعيد أخرج هاتفه خفية وطفق يعبث به.

أخيرا وصلوا إلى مبنىً عتيق صغير الحجم لا تكاد تميزه عن غيره. وما إن دخلوا حتى وجدوا بالداخل أحدث مبنىً شاهدوه في حيواتهم. كان مبنًى

مشيدًا تحت الأرض. سيطرت على أفكار ثلاثتهم أسئلة حيرى. لماذا نحن هنا؟ هل سيطلقون سراحنا؟ هل علموا بأنا قد أدركنا أن العدو ليس عدوًا بل أخًا؟ قطع هذه التساؤلات صوت الضابط وقد بدا أقل عصبية: تفضلوا بالدخول لهذا المكتب. وأدخلت أمتعتهم إلى مكتب آخر للتفتيش.

(8)

سأعود إلى البيت هكذا قالت خديجة. وهبت واقفة تحمل طفلتها. لم تجد معها محاولات علي لإثنائها عن قرار المبيت في بيتها بينما ظلت الأم صامتة لعلمها بإصرار بابنتها. أخيرًا اتفقا على حل وسط ؛ أن تذهب الأم مع خديجة لبيت زوجها ريثما يعود من سفره. رضخت خديجة لهذا القرار مكرهة. عامدة لم تسأل خديجة عليًا عن سبب سفر زوجها لإحساسها بأن هناك أمرًا يخفيانه عنها. وكذلك لم ترد أن تعمق جراح قلبها بخبر قد يكون الضربة القاضية لها ولرباطة جأشها. أوصلهما علي وعاد إلى بيته الذي لطالما حلم أن تدخله أنثى مثل خديجة. فتح باب البيت وألقى بجسده على أقرب. مقعد فتح هاتفه بيأس لينظر من أرسل له هذه الرسالة فقد مل من رسائل شركة الاتصال المزعجة ولكن كانت هذه الرسالة من ذلك العالق شمالًا. انتفض علي لما رأى رقم أحمد على الشاشة عدل من جلسته كانت رسالة طويلة لدرجة أن أحمد أرسلها في عدة أجزاء، حكى فيها لصديقة كل شئ شاهده بالتفصيل وكيف خدع في هذه الحرب " لم أصدقك يا علي عندما قلت لي لا تذهب قد تكون خدعة ". مضى علي مستغرقًا في كلمات أحمد المثيرة للدهشة والمزعجة أيضًا. كادت أن تفر منه دمعة قبل أن يختم الرسالة " ظهر اليوم طوقت خيمتنا مجموعة من الجند وأخذوني أنا ورفيقي ولا أدري إلى أين؟ أريد أن أطلب منك شيئًا، اخبرها يا علي هي فقط قل لها أن تدعو الله لي وأن تعفو عني. طمئن أهلي أني بخير ولا تخبرهم ولا تحاول الاتصال بي".

بكى علي كما لم يبك من قبل. استعاد شريط ذكرياته في الجامعة رغم اختلاف تخصصهما إلا أنهما لا يمر يوم عليهما إلا ويلتقيان. من بين كل ذكرياته الكثيرة تذكر يوم جاءه أحمد بعد تخرجهما يريد الزواج عندها ضحك علي بأعلى صوته بعدها ألقمه أحمد بجملة لا يزال يذكرها " هل أنت واثق من قواك العقلية أيها الطبيب النفسي؟ " . واصل علي ضحكته الهستيرية ثم بدأ يصمت تدريجيًا عندما رأى الجدية في ملامح أحمد عندها التف حوله وجر كرسي وجلس مواجهًا أحمد: صدقني لا يوجد فتاة أعرفها في هذه الدنيا تناسبك مثل خديجة.

ابتسم أحمد قبل أن يقول: رغم أني أشك في قواك العقلية لكنك قد أصبت هذه المرة. انقطع شريط الذكريات من علي عند هذه الجملة قبل أن يعيد قراءة الرسالة لمرات عديدة إلى أن جفت دموعه بل إلى أن جاءت رسالة تنبئه أن بطارية الهاتف على وشك النفاد عندها قام علي بتلقيمه الشاحن الكهربائي ودخل الحمام ليغسل دموعه التي جفت.

(9)

أغلق باب المكتب بعد أن دخل ثلاثتهم. دقائق من الصمت والانتظار كافية لكي يتصببوا عرقًا رغم برودة المكتب الفخم ذي المقاعد الوثيرة والأثاث الفخم .جالت بذهن أحمد تلك التي تسكن في أقاصي الأعماق لم يشأ أن يتركها تمر في الخاطر كغيرها، دائما ما كانت تنتشله من غياهب حزنه بكلامها العطر الفواح " ثق بالله، اعلم أنما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك". بعدها تركض داخل الغرفة لتحضر تلك الكرات البلاستيكية الصغيرة لتقسمها بينهما بالتساوي من يدخل أكبر عدد من الكرات في الشبكتين المعلقتين على الحائط يكون هو الفائز. هيا يا أحمد ارم يجيبها لا أريد اللعب، تقول هي: حسنًا سألعب عنك فتعجبه اللعبة أو يعجبه ذلك المرح البادي في وجهها فيلعب ويضحك. بدت على وجه أحمد ابتسامة خافتة وهو مقع في ذلك المكتب الجامد الجاف البارد ثم بدأت ملامحه إلى التراجع فشيئًا فشيئًا من حالة الابتسام إلى الجمود والتوجس حينما استشعر واقعه وأنه الآن في قبضة قوم ظالمين لا ينجيه منهم إلا الله. وبعد طول مكث دخل رجل حليق الرأس ذو نظارة سوداء تخفي عينيه، تبدو عليه القوة والرشاقة رغم انه في منتصف العقد الخامس. لم يكترث لوجودهم كأنهم ليسوا هناك جلس على كرسي مكتبه وانهمك في تقليب بعض الأوراق لساعة من الزمان وأثناء تصفحه تلك الأوراق سأل بصوت عال ولم يرفع عينيه عن الورق: من منكم جاسوس عمر الإدريسي؟ عندها حدث ما لم يكن يتوقعه أحمد وكمال وحتى ذلك الضابط الحليق.

هب ياسر من مقعده: أنا جاسوس الإدريسي ولا علاقة لأحد في الخيمة ولا في المعسكر بهذا الأمر.

دهش الضابط الحليق من هذه الشجاعة لكنه سيطر في عجالة على علائم الدهشة التي اجتاحته لوهلة ولم يبدها لهم. أمر الضابط الحليق أحمد وكمال بالمغادرة وحقيقة أحس أحمد بأن ياسر بشجاعته قد أفسد على الضابط الحليق عزمه على استعراض قدراته فقد كان يظن أن ياسر سيراوغ فالعقوبة المترتبة فادحة. تفحص الضابط الحليق ياسر جيدًا أراد أن يتأكد من أن الشخص الماثل أمامه ليس مجنونًا فهو يسير بنفسه نحو الرمي بالرصاص بخطىً سريعة فالاعتراف سيد الأدلة كما يقولون.

طرقات على الباب قطعت على الضابط الحليق تفحصه لياسر دخل جندي يحمل في يديه كيسًا مغلقًا " وجدنا هذه الأغراض في حقيبة المتهم ياسر جمال ولم نجد شيئًا ذا علاقة بالتهمة في الأمتعة الأخرى" . وضع الجندي الكيس أمام الضابط وغادر.

(10)

وضعت خديجة طفلتها على سريرها بعد أن غرقت في النوم وخرجت مغلقة باب الغرفة خلفها بهدوء كانت تتجنب نظرات أمها المتسائلة لم تنتظر الأم حتى الصباح وجهت إليها بصرها وسألتها مباشرة أين سافر زوجك؟

خديجة: إنه في الشمال.

الأم: ماذا يفعل هناك؟

خديجة: لا أدري ربما عمل كما تعلمين هو مهندس بترول وكثير السفر.

الأم: لماذا لم تخبريني بسفره وهو غائب منذ أيام.

خديجة: لم أرد أن أزعجك.

لم تطمئن الأم لنبرة ابنتها ولا هروبها من النظر إلى وجهها. لم ترد الأم أن تستطرد في الحديث أكثر من ذلك فقامت معلنة نهاية الحديث أو التحقيق، حينها قالت خديجة: اذهبي يا أمي ونامي في غرفتي وسأنام أنا مع أمل.

رمقتها الأم بابتسامة: بل سأنام أنا مع الصغيرة، وهبت متجهة نحو غرفة أمل، أحست خديجة بالراحة بانتهاء الحوار على خير كما تظن . أطفأت نور الصالة ودخلت غرفتها حيث كان ينام الفارس الصامت صاحب الحصان الأبيض لم تحلم به يومًا على حصان أبيض ولكنها تصر على وصفه بهذه الصفة. سارت في تأنٍّ نحو السرير الذي شهد مولد حب ثالث رجل رأته عيناها. ما أن تسترسل مع الذكريات حتى يبرز لها لغز القهوة التي لم تحبها إلا عندما قال لها علاقتنا كالقهوة، كم تمنت أن يفسر سر هذا التشبيه. تنتابها مشاعر مختلفة لا تستطيع تمييزها ربما أصابها داء زوجها إن كان تحليل علي صحيحًا. فقط هي الآن تميز شعورًا واحدًا؛ إنه الشوق وغالبًا ما يعقب إحساسها بالشوق دموعها تسيل وهاهي قد بدأت تترقرق في مآقيها ثم سرعان ما انهمرت

في غزارة. لا تدري كم بكت وكم ظلت على تلك الحال. أيقظها صوت آذان الفجر الأول كم تجد في الصلاة سكينة، وكم تجد في الدعاء راحة. دعت ربها أن يرد غائبها وهي باكية بصوت مرتجف في جوف الليل.

(11)

دام التحقيق لأكثر من ساعتين لم يراوغ فيها ياسر ولم يتلعثم، دهش الضابط الحليق من لباقة الفتى وصراحته فرغم طول باعه في استجواب العملاء والمشتبه بهم ، لم يمر عليه مثل هذا الفتى في ثباته ورباطة جأشه. لم يأخذ عليه لحظة انكسار واحدة، رغم الغلظة الظاهرة على الضابط الحليق إلا أنه في مكمن ما في دواخله استشعر التعاطف مع ياسر. تمنى لو كان الأمر بيده لكان أخلى سبيله؛ لكنه لا يملك الشجاعة الكافية . هذا الفتى أكثر منه شجاعة. إنه على قناعة بعدالة قضية أهله في الشمال فحاول أن يساعدهم، لحداثة سنه أخطأ الطريق وكذلك الإدريسي زعيمهم أخطأ التقدير. فمهما كانت دوافعهم وغبنهم لن يستطيعوا أن يتفوقوا على الدولة مترامية الأطراف مهولة الميزانية ولن ينال الشمال سوى الدمار . هكذا جال بخاطره في شرود قبل أن يجد صوته ليقول بصوت أقرب للهمس يكسوه الألم والشفقة، إحساسان لطالما افتقدهما منذ أول يوم وطئت فيه أقدامه مكتب التحقيقات مع الجواسيس أو كما يسمونهم (الطابور الخامس): انصرف يا بني.

ما كان لياسر أن يجد تلك المعاملة من الضابط الحليق لو كان تخابر مع عدو من أعداء الخارج ربما يكن في احترامًا لهذا الإدريسي جهد أن يخفيه في دواخله، لحساسية موقعه لم يصرح لأحد بهذا الاحترام، ظل يراقب ياسر وهو يخرج برفقة الجندي حتى أغلق الباب عندها خلع نظارته السوداء ومسح تلك الدموع التي تجمعت في مآقيه ولكنها بقيت معلقة هناك.

شرع الضابط الحليق يقلب الأغراض التي ضبطت في حقيبة ياسر، مجموعة من الأوراق تحمل معلومات في غاية الخطورة عن مواقع الجيش وكمية العتاد وخطة الهجوم وكذلك كمية من الرسائل فقط مسح عنوان المرسل إليه بعناية كأن من فعلها محترف تزوير، ثم أخذ يقلب في أخطر دليل بعد

الاعتراف يمكن أن يقود إلى ساحة الإعدام معصوب العينين؛ جهاز لاسلكي يعمل بالأقمار الصناعية. مضى يقلب متمعنًا في الرسائل. أدهشته تلك الرسالة التي تخبر ياسر "أن الجيش قد كشف أمره وسوف يقتحم الخيمة عما قريب وعليه أن يحاول التخلص من كل ما يمكن أن يدينه وأن ينجو هربًا بأعجل ما يستطيع فمازال هنالك وقت. توقف الضابط ممعنًا التفكير في هذه الرسالة وقد أخذ به التساؤل؛ لم لم يهرب؟ لماذا على الأقل لم يخف أدلة الإدانة؟ سأل نفسه هذه الأسئلة قبل أن يجد الإجابة في ورقة أخرى فشرع يبكي ليس بكاء عاديًا بل علا صوتًا وأسال أنفًا وأوجف صدرًا.

في المكتب المجاور كان كمال وأحمد مع الضابط الذي اقتحم الخيمة وقد بدا هادئًا لا تخلو لهجته من تهديد مبطن لم يخف على أحمد. بعد أن اعتذر لهما بكل احترام" حقيقة أكرر اعتذاري لكما للمرة الثانية أو الثالثة كما اكرر تحذيري من أن يخرج أمر الإدريسي للمعسكر أو إلى أي جهة أخرى، الآن يمكنكما أخذ أمتعتكما ومغادرة المكان". هم أحمد أن يتكلم ويفصح عما بصدره. أراد أن يسأل عن ياسر وما هي جريمته؟ أراد أن يقول للضابط لن أعود إلى المعسكر ولا شأن لي بحربكم هذه، لكنه نظر إلى عيني كمال الوجلتين كأنما تتوسلانه" دعنا نخرج من هنا ثم افعل ما بدا لك في المعسكر، هذا المكان ليس مكان اعتراض وربما كلمة طائشة نكون عاقبتها طلقة طائشة أيضًا أو شهورًا من الاعتقال والعذاب. آثر أحمد الصمت متلمسًا جيب سترته ليتأكد من وجود الورقة التي أعطاها له ياسر قبل اقتيادهم من الخيمة بلحظات.

(12)

علي: السلام عليكم.

خديجة: وعليكم السلام.

علي: كيف أصبحتن.

خديجة: بخير حال، ما الأمر؟

علي: هل أمي مستيقظة؟

خديجة: لا.

علي: جيد ارتدي ملابسك سوف أمر عليك الآن.

خديجة: ما الأمر؟

علي: لا وقت لدي استعدي بسرعة.

خديجة: بإذن اللّه.

أغلق علي الهاتف واخذ يقلب في قاموس الكلمات عله يجد طريقة مناسبة لإخبارها، ثلث الساعة كان علي أمام منزل خديجة التي شاهدته من النافذة أسرعت في الخروج وهي تركض على درجات السلم التي تحس للمرة الأولى أنها طويلة لا تكاد تنتهي. ألقت التحية عليه وركبت في المقعد الأمامي لم يرد علي أن يخبرها في الطريق خوفًا من انفعالها. آثر الذاهب بها إلى منزله. لم تكف خديجة طوال الوقت من سؤاله وهو يلوذ بصمته المقلق. دخلا المنزل قال علي متعجلًا قبل أن تهاجمه بالأسئلة: اجلسي، بالأمس أرسل ألي أحمد رسالة طويلة. وبدأ يسرد القصة على خديجة التي جف ريقها وربما جفت دموعها فلم تعد عيناها تسبلانها. ولبثت تنصت وكأنها أصيبت بالشلل فلا يند عنا حراك عدا عينيها وهما ترفان. فرغ من سرده ، كم تمنى لو

يستطيع أن يأخذها إلى صدره ويشاركها البكاء ولكن أنى له هذا وهو من يفترض أن يسليها في مصابها وحزنها، بعد أن جففت دموعها وهدأت دقات قلبها أمسكت يد علي وقالت: وما العمل؟

أجاب هو: لا أدري فقد قال لي لا تتصل بي فقد يكون هناك خطر عليه أو علينا.

أردفت خديجة: يجب أن نخبر أهله فهم أصحاب سلطة.

علي: كما أخبرتك قال لي لا تخبرهم، عندها أخرجت خديجة هاتفها وقال في إصرار : سأتصل به، هم علي بمنعها ثم عدل عن ذلك تركها عل ما بداخلها يبترد ، عل اتصالها يمنحها راحة تسنحم من عناء ما تجد . هذا الرقم مغلق. كان ذلك ماتلقته وأعادها إلى دنيا الواقع. كانت قد منت نفسها أن تفيء إليه في صحراء افتقاده وقد صارت الآن بيداء ممتدة بلا نهاية. أيقظها علي من خيالها المسافر ، امسك بها: هيا يا خديجة سأوصلك إلى البيت حتى لا تقلق أمي. خرجا من المنزل معا بجسديهما أما قلباهما فظلا هناك في الشمال حيث الحرب الخدعة والإفقار والظلم والقتل.

(13)

دخل أحمد وكمال الخيمة ، كان الطوق الأمني قد أزيل عنها. استلقى كمال على السرير كجثة سقطت لتوها بطلقة طائشة أما أحمد فكان الفضول يكاد يقتله ماذا تحوي تلك الورقة. أخرجها عندما بدأ كمال يرسل شخيره الخفيض المتقطع . شرع يقرأ " أكتب إليك هذه الرسالة يا أحمد بعد أن سمعت نقاشك مع كمال وعلمت أنك إنسان طيب جئت لأمر شريف ولكنك خدعت كما خدعت أنا كما خدع الشمال كله بوهم الحكومة العادلة. لم أكن في من الأيام ممارسًا للسياسة كما علمت عني أني لم أكمل تعليمي أدور حيث وجدت عملًا يكفيني أنا وأمي وأختي الصغيرة، سمعت بالإدريسي وانخرطت معه لما لمست فيه الصدق وأريدك أن تصدقني يا أحمد أن الإدريسي لو أخبرني قبل التمرد لما أيدته على سلوك هذا الطريق الوعر ذي الأشواك، الذي تزهق فيه الأرواح وفي نهاية الأمر لا شئ سوى الدمار ولكن صوت العجلة كان أقوى من صوت العقل فالظلم أعماني وتجرعت مذاقه المر.

أما عن الإدريسي فلم يكن يومًا من طلاب السلطة والمال والمناصب فقد حفظ القرآن منذ الصغر ونال أعلى الشهادات العلمية لم يكن محتاجًا لمنصب ولا سلطة، لا أريد أن أوجع رأسك بشئ مضى وانقضى وها أنا أواجه أولى عواقبه.

هولاء القوم لن يتركوني وفي الغالب سيكون موعدي مع الرمي بالرصاص غير بعيد ، فقط ما أطلبه منك إذا أخرجك اللّه سالمًا أن تذهب إلى أمي قل لها أن تدعو اللّه لي في ثلث الليل الأخير حينما يتنزل الرب يقول هل من مستغفر فاغفر له،اخبرها أني لم أنسها يومًا وفي ركن الخيمة الجنوبي احفر ستجد نقود أعطها لها قل لها أن أجرة عربة النقل ستأتيك كل أسبوع، طلب

آخر يا أحمد ستسمع يوم إعلان الرمي بالرصاص أني خائن لا تنفعل حتى تستطيع الخروج وتخبر أمي أني لست خائنًا وأن الخائن من خان عهده مع اللّه وخان قسمه الذي أقسمه، أقرئ كمال وأختي صمود السلام، أدعو اللّه لك بالنجاة" . ختم أحمد الرسالة بعد أن قرأ وصف منزل ياسر، شعر بالدوار أحس أن الدموع ستخرج من كل جزء في جسمه التعِب، هل الخيمة تدور؟ أم السرير ؟ هكذا تساءل . انتابه شعور بالعار مثل ياسر يضحي من أجل مبادئه ونحن نخدع كالسوائم. كم هو وفي هذا اليافع لأمه؟ ما أشجعه وهو يمضي إلى مصير يعلمه ويعلم أنه قادم لا محالة ؟ تذكر أمه المتوفاة ، لم يقل لها يومًا أحبك وهو يحبها ويعلم أنها تنتظرها منه بكل شوق، لماذا لم يهدها يومًا هذه الكلمات حتى غادرت الحياة وغادرت معها تلك الخصال التي لا تجدها إلا لدى الأم. أطلق لنفسه العنان وانسالت عبراته تباعًا. أفاق والورقة تطير من يده وتستقر جوار أحمد النائم غير عابيء بشيء و تمنى لو أنه مثله لا يحمل هذه الهموم والمخاوف والذكريات الأليمة . أدرك الورقة ودسها في حقيبته، وعاد إلى فراشه وقد اعتزم أن يرسل رسالة إلى شخص ما.

(14)

تردد الضابط الحليق قبل أن يجري هذا الاتصال بدأ الجرس بالجانب الآخر يرن..

- السلام عليكم

الضابط الحليق: وعليكم السلام، أنا اللواء: قاطعه قبل أن يكمل عرفتك يا سيدي أي أوامر.

الضابط الحليق: كنت أود أن أعرف كم عدد المحكومين في قضية التخابر مع العدو .

أجاب الطرف الآخر: ستة.

الضابط الحليق: أنا قادم في الطريق إليك لأراهم.

الطرف الآخر: حاضر في انتظارك.

وصل الضابط الحليق إلى مقر سجن الجواسيس فهو منفصل عن بقية السجون فيه من أدوات التعذيب واستخراج المعلومات ما لا يتصوره خيال، وجد مشرف السجن في استقباله بعد الترحيب والمجاملات الكاذبة أخذه إلى ذلك البهو المظلم الذي يقود إلى صالة مظلمة على أطرافها توجد غرف النزلاء التي يمكن وصفها بأنها مقبرة الأحياء، لا يمكن أن تستنشق الهواء إلا بصعوبة ولا يوجد بها مكان تستطيع الجلوس فيه ولا يرى النزيل فيها سوى الظلام. سأل الضابط الحليق: أين النزيل الجديد؟. بسرعة رد عليه مشرف السجن: في آخر غرفة، فتح مشرف السجن الغرفة ثم وجه الكشاف الذي في يده نحو وجه ياسر تأمله الضابط الحليق ولم يتكلم معه فقط اكتفى بالنظرات، تحرك الضابط الحليق طالبًا من المشرف أن يزور بقية النزلاء.

على مكتب مشرف السجن جلس الضابط الحليق مخاطبًا: أنت تعلم يا سيادة النقيب أن النزيل ياسر جمال متهم في قضية التخابر مع الإدريسي وأن هذه القضية قضية داخلية وهذا النزيل صغير السن ربما غرر به فانا أريد منك أن تعامله بصورة جيدة ولا داعي للتعذيب فهو اعترف بكل شئ وأنا شخصيًا استجوبته لم يكنم شيئًا، خذ هذه المبلغ لتلبية احتياجاته.

رفض المشرف أخذ النقود وتكفل بأمر هذا النزيل شخصيًا كجزء من خدمة كبار الضباط فقد يحتاج إلى خدماتهم في يوم من الأيام، انصرف الضابط الحليق وقد لفه الرضا بهذه الخطوة وجلس مشرف السجن سعيدًا بهذه الصفقة الخدمية.

(15)

رجعت خديجة إلى بيتها مع علي الذي أوصلها وتحرك مسرعًا نحو العيادة. لحسن حظها أنها وجدت الأم مازالت نائمة، طرقت باب الغرفة طرقًا خفيضًا ثم فتحته، وجدت الأم نائمة بثياب الصلاة يبدو أنها صلت الفجر ثم نامت توجهت نحو الصغيرة التي فتحت عينيها وابتسمت عندما رأت أمها وكذلك الأم بادلتها الابتسام واقتربت منها ثم جلست بالقرب منها وبصوت هامس قال: كيف حالك يا حبيبتي.

أجابت الصغيرة: متى سيعود أبي لقد حلمت به البارحة.

ردت خديجة: قريبا إن شاء الله، تركتها الأم وخرجت من الغرفة تفكر ماذا ستفعل في أمر زوجها المخدوع بحرب لا ناقة له فيها ولا جمل.

انهمكت خديجة في عمل المنزل وقلبها هناك شمالًا حيث الحبيب الشرود. أشارت نغمة الهاتف إلى وجود رسالة ظنته علي هرولت نحو الهاتف فإذا بها قادمة منه هو، هو من شغل البال والقلب خوفًا عليه كادت أن لا تصدق الهاتف هل هذا رقمه؟ نعم هو اسمه صدمتها هذه المفاجأة ولا تدري أن بالداخل صدمة أخرى، أدخلت الهاتف داخل الغرفة وأغلقته وخرجت لتكمل عملها سريعًا أرادت أن تقرأ الرسالة ببال هادئ بل أرادت أن تلتهم الرسالة كوجبة شهية لا تريد أن يشاركها فيها أحد، أنهت عملها أو هكذا أقنعت نفسها دخلت الغرفة وبعجالة أغلقت الباب خلفها كأنها عاشقة في الخفاء تخاف أن يكشف أمرها أحد. تناولت الهاتف بيد مرتعشة وقلب واجف من شدة ضرباته استلقت على السرير، بقدر الحب يكون الألم. لا تدري ما الموقف الذي ذكرها هذه الجملة الآن التي كانت تقولها عندما تسوء الأحوال بينهما، انتبهت لنفسها فشرعت في فتح الرسالة: " أحبك يا سكر قهوتي" هذه كانت أول جملة في الرسالة رجعت خديجة لتتأكد من أن

الرقم هو رقمه ثم عادت مرة أخرى للرسالة. لفها إحساس أنها تحلم. جرت نحو المرآة هل هذه أنا خديجة؟ هكذا سألت نفسها، شرعت في الرجوع إلى الفراش وهي تكاد تحلق، حاولت أن تستوعب هذه الكلمة كم هي سعيدة الآن حد الصدمة. يقينًا أنه لا يعلم كم أروت هذه الجملة صحراء قلبها القاحلة. اجتاحتها كما سيل قادم من حالق لا يقف في سبيله شيء إلا اجترفه. حاولت أن تتماسك لتكمل باقي الرسالة التي لم تكن طويلة كتلك التي أرسلها لعلي فبعد جملة الطوفان هذه ذكر: " أحبك رغم حرارة القهوة الحارقة وعتمتها، عندما سألتني في ذالك اللقاء أتذكرينه؟ لم أكن أمزح أو أتهرب، أما إذا سألتني عن حالي فأنا بخير تجاوزنا مرحلة الخطر نسبيًا ولا أدري متى سأعود لا تحاولي الاتصال بي، أطبعي لي قبلة على خد أمل". انتهت الرسالة وانتهت معها ما تبقى من قوة في جسدها الذي أصبح مبللًا بالعرق في هذ المدى اليسير وشحب وجهها. أعادت قراءة الرسالة للمرة الثانية استوقفتها جملة الطوفان وكأنها رأتها للمرة الأولى قربت الهاتف منها كأنها تريد التهامه، ضاعت في تفاصيل الرسالة تذكرت ذلك اللقاء عندما اخبرها بتلك "العلاقة القهوية" سعادتها بجملة الطوفان طغت على سعادتها بمعرفة سر التشبيه، وأخيرًا زفرت وقالت بصوت مسموع: لم تكن يومًا عتمتها وسوادها بل أنت كوبها الأبيض الجميل، أحست به بالقرب منها كادت أن ترتمي نحو طيفه الماثل. لم يخرجها من هذا المشهد الحالم إلا طرقات على الباب تكاد أن تدوي دويًا. ركضت نحو الباب فإذا بالأم تسأل باستغراب: هل مازلت حية؟ ظننتك ميتة منذ عشر دقائق وأنا أطرق هذا الباب بقوة، ثم أردفت الأم عندما أمعنت النظر في خديجة: ما بك وجهك شاحب وما هذا العرق؟ هل أنت مريضة؟ أجابت خديجة: لا شئ لا تقلقي. تفحصتها الأم بنظرها مليًا، ثم خاطبتها: هيا، الأكل جاهز. حاضر فقط دقائق. قالتها خديجة قبل أن تنصرف الأم. أغلقت خديجة الباب وفي غمرة

سعادتها لم تنس من كانت تناجيه ليل نهار في سرها وجهرها، الذي استجاب دعاءها من فوق سبع سماوات بدلت ملابسها وخرجت خديجة جديدة غير تلك التي كانت قبل ساعات.

(16)

استيقظ المعسكر على دوي انفجارات وقذائف وطائرات لزم كل فرد خيمته استمرت ساعة من الزمان بعدها خرج أحمد معه كمال يتلمسان الأخبار وكانت الشائعة السائدة أن الدولة الجارة قصفت بعض قرى الشمال، فرض الجيش حظر تجول شامل حتى لأفراد المعسكر، هل أهل ياسر طالهم هذا القصف؟ فكر في هذا الكلام أثناء عودته إلى الخيمة رفقة كمال، شق سمعهما مكبر صوت وسط المعسكر " شاركوا معنا في إعدام جاسوس العدو الذي يقصف قرانا ومدننا وسيكون الإعدام داخل المعسكر بدلا من الساحة العامة حتى يكون عبرة لغيرة " دخل أحمد الخيمة قائلًا: لن أحضره. يا أحمد لا تكن عنيدًا إذا لم تقف سوف يتهمونك بالتواطؤ وربما أعدموك معه. قال كمال مخاطبًا أحمد الذي أردف: لا يهم. كمال: أنا أيضًا لن أشاهد الرمي بالرصاص لكن لا بد أن نخرج من الخيمة أثناء تنفيذ الحكم.

تجمهر الناس بسرعة وقفوا على شكل دائرة وفي والوسط عربة (بوكس) جاءت بالجاسوس المزعوم وقف جندي قوي البنية يحمل بندقية آلية على مسافة من العميل المزعوم، خرج كمال من الخيمة وخرج وراءه أحمد ليس اقتناعًا بكلام كمال وإنما أراد أن يلقي نظرة على ياسر قبل أن الوداع الأليم لكن خاب أمله فقد كان وجه ياسر مغطًى بقماش أسود على غير العادة التي جرت بعصب العينين فقط. تلقى الجندي القابع على مسافة من ياسر التعليمات "إطلق النار". عم الصمت الرهيب أرجاء المكان ثم دوى صوت

الطلقة الأولى التي استقرت في صدر ياسر ثم لحقتها الثانية والثالثة في المكان ذات. تحولت سترته إلى اللون الأحمر ترنح قليلا ثم سقط كأنه ورقة شجرة حور في فصل الخريف. فارقت الروح الجسد. كان مشهد الموت ثاقباً كأنه الشهاب يشق الروح. دون وعي منه انهمرت دموع كمال لم يستطع حبسها ولو استطاع لفعل خوفًا من تهمة قد تطاله (التستر على فعل الخيانة العظمى). لم يختلف منظر أحمد عن كمال، رمقهما الضابط الحليق بنظرة حزينة بعدها انفض الناس. داخل الخيمة حزم أحمد أمتعته مقررًا مغادرة المعسكر لا حاجة منطقية تبقيه في المعسكر. كعادته كمال كان في دور الناصح: كن عاقلًا لن يتركوك ترحل وأنت في حوزتك تلك المعلومة ولا أحد الآن في المعسكر يستطيع أن يعطيك إذنًا بالمغادرة انتظر حتى الصباح. تلبث كمال مليًا قبل أن يستلقي في فراشه دون كلام ليستغرق في إعادة قراءة رسالة ياسر والتي أبقاها لديه رغم خطورة ما قد تؤدي إليه إذا ما عثر عليها بحوزته.

(17)

نزل من سيارته الفارهة وبخطًى واسعة تقدم نحو البوابة التي فتحت مباشرة عندما وقف أمامها تقدم خطوات نحو ذلك المبنى الفخم المرهوب، داخل المبنى كان الضابط الحليق أمام مكتب تلك الشخصية التي لا لم يعرف لها منصبًا فهو تارة اللواء علاء عبدالعزيز و الأستاذ علاء تارة أخرى ذلك الرجل صاحب النظارة الكبيرة والرأس نصف الأصلع في بداية العقد السادس تبدو عليه ملامح الإعياء والتعب وعدم الراحة رغم ذلك المكتب الواسع ذي الأثاث الذي لا يرى إلا في عدد قليل من المكاتب. ما بال وجهك شاحبًا هكذا ؟ سأل الضابط الحليق. تبدى الارتياح على وجه فقد أحس أنه يقوم بعمله جيدا والدليل التعب الذي يبدو على ملامحه للناس. لم يدر الضابط الحليق أن علاء كان قد قضى سهرة الأمس في ذلك المرقص الذي يتردد عليه بصفة مستمرة، بادر علاء الضابط الحليق بابتسامة قائلا: الأعباء يا سيادة اللواء.

الضابط الحليق: لا أريد أن أطيل عليك، طبعا أنت تعلم قضية جاسوس عمر الإدريسي وأننا نفذنا فيه حكم الإعدام. ظهر الاهتمام على وجه علاء قبل أن يستطرد الضابط الحليق: وقد صدر قرار مؤخرًا بتصفية المجندين اللذين كانا معه في الخيمة لعلمهما بخبر الإدريسي. حقيقة يا سيد علاء لا مبرر لهذا القرار وقد يحدث ما لا تسر عقباه فمن خلال معلومات الواردة إلينا عن أحد المجندين يدعى أحمد عثمان من وسط البلاد يعمل مهندسًا في شركة أجنبية وله قرابة بنافذين في الدولة كل هذا يجعل أمر تصفيته فعلاً محفوفًا بردود أفعال قد تكون في غير صالح العمل. علاء: يمكن أن تتم التصفية في ساحة القتال ويعد من ضمن قتلى الحرب.

الضابط الحليق: هذا المجند بالذات لن يذهب إلى القتال بعد أن علم الحقيقة كما أنه متطوع وليس من أفراد الجيش.

علاء: لكن لا بد من أن يبقيا في المعسكر حتى تنتهي هذه الحرب على الأقل مع العلم إني لا أستطيع إيقاف قرار التصفية.

أخفى الضابط الحليق سعادته فقد أوصل محاوره للنقطة التي يردها رد سريعا: لكنك تستطيع أمرًا آخر.

علاء: ماذا تقصد؟

(18)

في المساء جاء علي إلى خديجة يسارع الخطى في صدره خبر أخافه وأزعجه، طرق علي الباب فتحت الأم الباب قبلة على رأس أمه كفيلة بأن تشعره بالراحة. تقدم إلى داخل الغرفة. سارعت أمل تركض نحوه كما اعتادت أن تفعل كلما رأته ليرفعها إلى حضنه كما اعتاد أن يتلقاها ثم دار بها في الهواء حتى أحس بأن رأسه يدور أيضًا وكاد أن يترنح وسط ضحكات الصغيرة. سألها عن أمها أشارات له ناحية المطبخ انتهز الفرصة وأسرع ناحية المطبخ وجدها على غير ما كان يتوقع في هدوء وسكينة سألها : كيف الأخبار ؟

أجابت: أرسل اليوم أحمد رسالة وقال إنه بخير وتعدى مرحلة الخطر. لم تستطع أن تعطيه الرسالة ليقرأها لاحتوائها على جملة الطوفان التي زلزلت أنحاء قلبها و أروت زهور أرجائه حتى تفتحت وتبدى نداها وفاح عطرها وأوشك الفراش أن يتغاشها فرط ينعها البهي.

- هناك خبر متداول بين الناس يقول إن بعض قرى الشمال قصفت، قال علي ليخرج خديجة من شرودها. نظرت إليه والخوف في عينيها لبثت هنيهة تفكر ، وأخيرًا عثرت على كلماتها بعد طول صمت: لقد أرسل رسالة لي اليوم ، متى حدث هذا القصف؟ أجابها بشرود: لا أدري.

شعورها أن حبيبها يمكن أن يكون بين أنقاض هذا القصف بعد أن أطلق الله لسانه وبعد أن ذاقت من شهد كلماته الصافي وشفي من مرض الصمت جعلها تسرح ببصرها ناحية النافذة ونست ذلك الشخص الذي يقف أمامها. أمال علي رأسها نحو صدره في حنو بعد أن رأى الخوف في وجهها وطبع قبلة على رأسها قائلًا: من المحتمل أن يكون القصف بالأمس كما أن من الصعب قصف

معسكرات الجيش التي غالبًا ما تكون ذات تأمين عال. أحست ببعض الأمان وخرجا من المطبخ حتى لا تقلق أمهما.

(19)

أرخى الليل سدوله على المعسكر ونامت أغلب الخيام إلا بعض الخيام وكانت من بينها خيمة أحمد وكمال اللذين أصابهما الحزن من فقد أخ لهما لم يمكثا معه طويلًا. قتل بتهمة لم يرتكبها فهو لا يحسن لغة تلك الدولة المجاورة التي زعموا أنه تخابر معها. يوجه كمال بعضاً من ثرثرته إلى أحمد بين الحين والآخر بينما يكون رد الأخير مختصرًا كأنه لا يريد الحديث أو لا يقوى عليه و ليس في ذهنه سوى شئ واحد ؛ في الغد حينما يحضر الضابط المشرف سيطلب منه إذن المغادرة. وفي غمرة هذا الحديث المتقطع ظهر ظل شخص على قماش الخيمة التي في وسطها كشاف ليعلن أن أصحاب الخيمة ما زالوا مستيقظين قبل أن يدلف إلى داخل الغرفة بسرعة، لم يكن الداخل سوى الضابط الحليق. أطفأ الكشاف في عجالة عندها قال كمال: من أنت؟

الضابط الحليق: أنا الضابط الذي حقق مع ياسر.

لم يشك أحمد في صدقه فقد لمحه قبل أن يطفئ الكشاف، لحظات من الصمت قبل أن يقول الضابط الحليق: لا وقت عندي يجب أن أدخل في الموضوع سريعًا، لقد صدر قرار بتصفيتكما ولقد حاولت إلغاء هذا القرار ولم استطع ولكن استطعت أن أن أحصل على قرار بإبقائكما في المعسكر حتى لو بدأت الحرب بشكل جاد ، الأمر الأكثر أهمية أنكما لا بد أن تهربا في أقرب فرصة ممكنة قبل الشروع في تنفيذ التصفية وهذه مهمتي. كونا مستعدين في أي وقت. لحظات من الصمت قبل أن يعاجله أحمد بسؤال لم يكن الضابط الحليق يتوقعه: لماذا تفعل هذا؟

وتغضن وجه الضابط، وقال بصوت متحشرج: أهذا فراش ياسر؟

أجاب كمال: نعم.

قال الضابط بصوت خفيض : كان بإمكان ياسر أن ينكر كل أدلة الاتهام ضده كان يمكنه الهرب من المعسكر لكنه لم يفعل أتدري لماذا؟

لحظات من الصمت القاتل كافية أن يسافر أحمد بخياله محاولًا أن يجد جوابا لسؤال الضابط لكنه ما لبث أن تذكرها كم حاول أن يرتوي منها فشرب منها حتى الثمالة ولم يرتو بعد، هل تفجر الغربة العشق؟ لم يستطع أن يجيب على هذا السؤال فقد بدأ الضابط الحليق بالحديث: آثر ياسر البقاء حتى لا تتورطا في القضية. قال هذا الجملة وأجهش بالبكاء لا يعلم هو لماذا يبكي من شجاعة ياسر أم على جبنه هو، لقد علمني هذا الفتى الشجاعة رغم حداثة سنه، أتدركان معنى أن تقود نفسك إلى الإعدام، نحن قوم جبناء أتعلمان أن من قصف قرى الشمال بالأمس هو الجيش حتى يجبر الإدريسي على الجلوس للتفاوض لعلمهم أنه نقي القلب لا يتحمل أن يتأذى الآخرون بخروجه على الدولة. تناثر الدم في كل مكان وكذلك الأشلاء، نهبت البيوت وهرب من بقي حيًا. أحس الضابط الحليق انه تكلم كثيرًا نهض بعد أن أوصاهما بعدم التهور ريثما يرتب أمر الهروب من المعسكر.

خرج وترك خلفه مزيجًا من الخوف والحزن يسيطر على نفس أحمد وكمال، ياسر أشجع منا جميعًا لم يرد أن نتجرع جريرة ما فعل لكن خيب القوم الظالمين أمله فقد حكموا علي أنا ورفيقي بالتصفية. هكذا كان يفكر أحمد قبل أن يظهر ذلك السؤال في مخيلته، هل تفجر الغربة العشق؟ في محاولته للإجابة أطلق العنان لنفسه متناسيًا ما هو فيه من بلاء. لا ندرك قيمة الأشياء إلا بعد أن نفقدها و مع نطقه لهذه الكلمة الأخيرة وإحساسه أنه يمكن أن يفقدها أصابته رعشه وزادت دقات قلبه وانسابت دموع من

عينيه مختلفة عن كل دموع سكبها في حياته، استغرق بكاؤه زمنا حتى سكنت نفسه، أين كمال؟

قال هذه الجملة وهب راكضًا إلى خارج الخيمة أمعن النظر في فضاء المعسكر ولمح شبح كمال يجري ناحية السور. أدركه بلأي ، أمسك به وهو يسأله بما يقرب من العنف : إلى أين؟

رد بشفتين مرتعشتين وملامح تملكها الرعب: سأهرب يا أحمد ، لن أنتظر هذا الضابط ربما يخاف وربما كان تنفيذ قرار قتلنا اليوم أو الغد لن انتظر.

أحمد: لن يتركوك حتى لو هربت كن عاقلًا. جره أحمد دون مقاومة إلى داخل الخيمة.

(20)

شق طيف نحيل طريقه في تلك الظلمة حتى وقف أمام منزل طيني وقد غطى بابه بالصدأ، فتحه من غير عناء فقد كان شبه مفتوح. دلف إلى فناء المنزل المكون من غرفة طينية تستند عليها عريشة من القش بينما يقبع في الركن الغربي الجنوبي مبنًى صغير يمكن أن يطلق عليه مطبخ. في قبالته مباشرة في الاتجاه الشرقي حفرة حولها قطعة قماش مربوطة على أعواد مثبتة في الأرض تستخدم مرفقًا خاصاً.

وقف يتأمل النائمين في ضوء السراج الخافت الذي أوشك أن ينضب زيته فبدا خابيًا، شعرت إحداهن بحركة فقالت بصوت قوي لا تخفى فيه نبرة الحزن، من؟

رد عليها: هذا أنا يا أمي؟

اختبأت الصغيرة ذات العشرة أعوام خلف أمها ظنًا منها أنه لص أو جن كما يروى لها في القصص، توجست الأم خيفة في بادئ الأمر ثم تشجعت وأمعنت النظر في وجهه على الضوء الكابي، اقترب منها خطوات حتى تتأكد عندها صاحت: ياسر تعال يا حبيبي.

كان ينتظر هذه الجملة منذ زمن هرول نحوها وارتمى بين ذراعيها في ذلك الموضع الذي اعتاد عليه منذ الصغر، فقط اليوم طعمه مختلف فقد كان اللقاء بعد أن ظنا إلا تلاقيا وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

من بين نحيبها ودموعها تكلمت الأم كلامًا بالكاد تبينه ياسر: قالوا لي إنك قتلت برصاص الحكومة وأنك جاسوس منعوا الناس من الدخول علي لواجب العزاء، كانت النسوة تأتي خلسة لمواساتي.

زادت كلمات الأم من بكائه حتى علا نحيبه استمر لدقائق قبل أن يجيبها: فعلا يا أمي أنا في أوراق الحكومة ميت وجاسوس.

قالت باستغراب: كيف؟

قال وقد كساه الوهن: هذه قصة طويلة فقط أريدك أن تعرفي أني هربت من السجن ولا يجب أن يعرف أحد بأني حي.

وهل ستمضي حياتك كلها في المنزل؟ سألت الأم بالتياع.

قال: لا....

أوشك أن يغوص داخل ثلاجته بحثًا عن شئ يناوله سريعًا وينام فهو كعادته منذ أن ذهبت أمه لخديجة لا يعود إلى المنزل إلا بعد أن يحل الظلام. تناهى إليه صوت هاتفه الذي تركه على الطاولة التي في وسط الصالة أوشك أن لا يكترث له فهو جائع ومتعب، ربما يكون أمرًا مهمًا هكذا ردد في نفسه قبل أن يتوجه تلقاء الصالة لم يكن المتصل سوى أمجد زميله من أيام الجامعة الذي يطلق عليه أمجد السياسي بل هكذا سجله في الهاتف. بعد السلام والمجاملات التي رددها علي في عجالة وتوجس فقد أزعجه اتصال أمجد في هذا الوقن المتأخر. قال أمجد: اسمعني افتح قناة الحق الإخبارية هناك برنامج عن الشمال. أغلق الخط وهرول ناحية الشاشة المعلقة على الحائط أدار الجهاز ولحسن حظه كان البرنامج في بدايته.

ظهر رجل أنيق بصوت إذاعي فخيم قائلا: أعزائي المشاهدين كما عودتكم قناتكم قناة الحق بطرح القضايا الساخنة، موضوع حلقتنا اليوم قصف قرى الإقليم الشمالي الذي أثار تساؤلات عديدة من قام بالقصف؟ وما هي أهدافه؟ ولمصلحه من؟ وللإجابة على هذه الأسئلة وغيرها معنا نورالدين حامد الناطق الرسمي باسم الحكومة وعبر الأقمار الاصطناعية عبدالغني أحمد الناشط والحقوقي.

بدأ المذيع الأنيق بسرد الأسئلة: أستاذ نورالدين هناك اتهامات للحكومة أنها من قامت بالقصف ما قولك؟

رد نورالدين: هذا كلام عارٍ من الصحة تمامًا كيف للحكومة أن تقتل شعبها هذا القصف الغادر من الدولة الجارة لأبناء شعبنا لن يمر بسلام.

أردف المذيع: ولكن يا أستاذ نورالدين بالأمس صرح رئيس الدولة الجارة بعدم وجود علاقة له بهذا القصف.

صاح نورالدين مقاطعًا: إدعاء كاذب وسوف يكون ردنا حاضرًا، ثم مضى يسرد عن الانتهاكات التي تقوم بها تلك الدولة نحو البلاد ودعمها للمتمردين.

انتقل المذيع ليسأل الضيف الآخر: السيد عبدالغني ما هو تعليقك على القصف؟

عبدالغني: المعلومات الواردة من الشمال تقول إن الجيش قام بقصف لإجبار عمر الإدريسي على الجلوس لمائدة التفاوض. عندها تتطاير الشرر من عيني نورالدين الناطق الحكومي وأطلق العنان للسانه بالسباب والشتم في الناشط الحقوقي. انتبه علي للشريط أسفل الشاشة باللون الأحمر مكتوب فيه: " عاجل.. أصدرت الرئاسة بيانا تشكر فيه عمر الإدريسي على قبوله الجلوس في مائدة التفاوض ونبذ الفرقة".

واصل علي الحلقة التي أصبحت ساحة للسباب وكيل الاتهامات من قبل الطرف الحكومي.

ولج الضابط الحليق إلى خيمة أحمد وكمال قبل طلوع الشمس وبيده ظرفان و قد علت وجهه ابتسامة أضفت شيئًا من الرفق على ملامحه التي تبدو قاسية. نهض أحمد متوجسًا وكأنما قرأ الضابط أفكاره فبادره: لقد جاءكما الفرج من الله بالأمس قبل الإدريسي التفاوض وبالتالي انتفى الغرض من تصفيتكما وهذا إذن لكما بالمغادرة.

دخل الخبر على قلب أحمد كدخول الماء البارد في جوف الصائم في يوم قائظ. حلق بخياله في فضاءات كثيرة . كان وجهها هناك قبالته أينما توجه جائلًا بخياله. عيناها حديقتان تموران بالجمال . تذكرها وهي ترتدي نظارة القراءة وتذكر كيف كان يسائل نفسه أتزيدها النظارة بهاءً أم أنها أجمل بلا نظارة. ابتسم بلا وعي منه ولكنها كانت ابتسامة حزينة يخالطها تبكبت الضمير . الآن فقط أدرك خطأه . كم كان جامد الحس حيالها . اعتقاده بأن التعبير عن حبه ضعف لا يليق بإنسان مكتمل الرجولة هل كانت تلك تربيته أم سلوك اكتسبه فقد نشأ يتيمًا يكره الضعف والدموع والمشاعر المسفوحة بلا كوابح .ربما يكون ذلك في الحياة صحيحًا ربما كان نهجًا متعارفًا ودارجًا بين الناس رجالًا ونساءً لكن كان عليه أن يدرك أن الزوجة ليست كالكتب والأثاث ينبغي للمرء أن يتفاعل معها. لا يكفيها العلم بالحب بل لا بد من التعبير لها تصريحًا وتلميحًا فهي الكائن الذي يحيا بما يحيط به من أحاسيس تغدق عليه. استفاق من هذا العصف الذهني على قفزات كمال في الهواء فرحًا كأنه صبي أهدى له والده دراجة هوائية كان يتمناها.

لم يفطن إل أن الضابط قد غادر و كمال قد استحال إلى فرحة عارمة وقد عاد إلى طفولته يحتضنه تارة ويتصايح تارة ويصدر أصواتًا لو كانا في غير هذا الموضع لظن به الجنون.

أحمد: هل هناك ما نفعله قبل المغادرة أعني هل ينبغي أن نبلغ شخصًا ما هنا في المعسكر قبل المغادرة.

كمال: أبلغ أن من شئت في هذا المعسكر أما أنا فمن هنا ومع السلامة قد يغيرون رأيهم في اية لحظة يا أخي .

تحسس أحمد جيبه ليرى تلك الورقة التي وضعها الضابط الحليق في جيبه من دون أن يشعر كمال.

ذهل وهو يقرأ في الورقة أثناء انشغال كمال: لا تحاول الذهاب لأسرة ياسر، وبالنسبة للأمانة أعطها لصاحب هذا العنوان، ازداد ذهولًا وهو يرى العنوان في الولاية الوسطى.

بعد أن جهز حقبته تكلم كمال مخاطبًا أحمد: هل أنت جاهز؟

انتزعته كلمات كمال من شروده، نعم جاهز.

خرجا من المعسكر وسارا مسافة طويلة قبل أن يصلا نقطة الافتراق حيث سيستقل كمال أيما سيارة متجهة شمالًا حيث لا كهرباء ولا خدمات ولا اتصال، باختصار لا حياة لذلك لا داعي حتى لكي يمتلك هاتفًا. الزراعة هي متنفسهم الوحيد منها يأكلون و بها يفرحون "رائحة الأرض جميلة" قال هذه العبارة عندما سأله أحمد عن أحوال قريتهم وهما يمضيان الوقت انتظارًا لما سيحملهما بعيدًا عن هذا القفر الذي خلف لديهما ذكريات جمة المرارة. وقال مخاطبًا أحمد أتدري لماذا جاء أغلب أبنا ء الشمال للتطوع مع علمهم بالخدعة، إنه وعد حكومي بالإعفاء من الضريبة المفروضة على كل

مزارع كم أثقلت كواهلنا يا أحمد، أتدري في بعض الأحيان تخرج من الموسم وعليك ديون.

من البعيد تناهى إليهما صوت سيارة تقترب كانت ماضية شمالًا . فكر أن كمالًا هذا دائم الحظ ربما كان هو أيقونة الحظ له في هذا المعسكر وفكر وهو يبتسم مودعًا كمال . هؤلاء البسطاء أمثال كمال هم بركة هذه الدنيا . دمعت عيناه وكمال يحتضنه مودعًا وهمس له بصوت متحشرج

: لا تنس إذا أتيت المدينة أن تزورني ستجد عنواني هنا.

بهذه العبارة دس أحمد في يده ورقة فيها هاتفه وعنوانه وبعض النقود وتوجه يغز السير في ذلك القفر الخالي صوب محطة القطار . لا يعلم كم من الوقت سيمضي قبل أن يصل هناك وكم سيبقى حتى يصل قطار أو يجد وسيلة تبلغه مدينة مجاورة يستقل به ما يوصله إلى منزله حيث سيجدها . ستلتئم حياته بها مجددًا وتمنى لو كان مثل كمال يعبرعن فرحه مباشرة "على الهواء" كما فكر عنه وهو يراه يتواثب فرحًا في الخيمة. ماذا يضير الإنسان لو كان هكذا . تساءل وهو يعود بذاكرته إلى حياته الجهمة المتحفظة.

استوى على المقعد غير المريح في الحافلة السفرية . كانت بدائية ولكنها ستمضي به بعيدًا عن هذه البقعة التي ستبقى ذكرى أليمة في نفسها ما ذكرها. كم هي طويلة الأيام التي قضاها في هذه البقعة رغم أنها لم تتعد الأسابيع . تجهم وهو يتساءل عما إذا كان الناس قد أدركوا أنه ما من دولة جارة تغير على بلادهم ولكنه أحد أبنا البلاد وقد حمل السلاح جراء الظلم و التجاهل المزري لحيوات الناس وما ينبغي أن توفره لهم حكومة يفترض أنها من حكومات العصر. أصابه اليأس وهو يفكر وماذا أيضًا لو علم الناس وهم مبدءًا غير مبالين.

(23)

وضع الخادم كوبين عصير بكل أدب وانصرف بينما ظل الرجلان يتبادلان عبارات المجاملة.

-سعدت جدًا بزيارتك يا سيادة اللواء جمال بعد طول غياب، هكذا قال الضابط الحليق مرحبًا بزميله من أيام الكفاح والسلاح، ساقهما الحديث لتلك الأحداث المؤلمة في ذلك الحين ولكنها بعد مرور الزمن أصبحت ذكريات تروى في المجالس وتؤنس اللقاءات.

ثم جاءت لحظة الصمت التي تسبق أن يفصح فيها الزائر عن غرض الزيارة خاصة حينما لا يكون سارًا.

- لا أدري يا صديقي كيف انقل لك الخبر فقد وردت معلومات بأنك قمت بتهريب جاسوس حكم عليه بالإعدام.

أردف اللواء جمال: طبعا أنت تعرف عقوبة هذا الفعل ولكني تفاهمت مع القيادةلكي يتم تخفيف العقوبة والاكتفاء بإنهاء الخدمة العسكرية.

لحظة صمت شهدتها الجلسة طاف فيها الضابط الحليق على محطاته العسكرية المهمة لم يكن يدري حينها انه مجرد آلة في يد سلطة باطشة نعم هي الحقيقة التي يعرفها جمال وكثير من الضباط لكن فقط هم يتغافلون، لو انتظر جمال لأيام قليلة لقدمت استقالتي.

الضابط الحليق: نعم فعلت ذلك.

لم تكن دهشة اللواء جمال عادية،أهذا صديقه؟ ذلك الرجل القاسي الذي يخاف الكل حتى الضباط الأعلى منه، ماذا حل بك يا صديقي؟

عندها رد الضابط الحليق بهدوء: إنها قصة طويلة لا يهمك سماعها.

جمال: ولكن يهمني معرفة كيف قمت بتهريب الجاسوس.

تردد قبل أن يحكي لصديقه. انتابته رغبة عارمة في إنهاء الجلسة ولكن شئ ماء جعله يبدأ بسرد القصة.

بعد أن خرج المتهم ياسر من عندي احتفظت بأوراق القضية عندي وكذلك أدلة الاتهام ولم إرسلها للقيادة، وقمت بإرسال المتهم إلى السجن ولكن بغير علم أحد سوى مشرف السجن فأصبح المتهمون بالسجن ستة والمعلومون للقيادة العليا خمسة متهمين ثبتت عليهم تهم حقيقة بالتآمر مع أعداء حقيقيين. عند صدور قرر الإعدام طبعًا هذا القرار تم اتخاذه من القيادة المحلية بقانون الميدان باعتبار التخابرفي حالة حرب.

تم إخراج المتهم بعربة (بوكس) وبعد آخر نقطة تفتيش قمت بإيقاف العربة وبدلت ياسر بآخر بحجة أن هناك خطأ حدث و غطيت وجهه بالكامل حتى لا يعرف.

استمع اللواء لهذه القصة وفي نفسه سؤال واحد لماذا يفعل كل هذا لشخص لا يعرفه ويعرض وظيفته بل وحياته للخطر.

الضابط الحليق: كيف اقتنعت القيادة العليا بفصلي من العمل ولا دليل عندهم ضدي.

جمال: لا أدري. قال هذه الجملة وهم يقف منهيًا الجلسة التي أحس فيها بالعار هل كان سيفعل هذه الفعل لو كان مكان صديقه أم أنه سيجبن كما هي عادته. خرج من المنزل عله يتنفس بعض هواء فقد ضاق صدره وأحس بالدوار إلى أن وصل سيارته التي يراها لأول مرة ملطخة بدماء الأبرياء.

(24)

أحمد وفور ترجله من الحافلة القديمة استقبلته حرارة الشمس المحرقة في ذلك النهار وسط البلاد. احتار هل يلبي نداء الشوق أم يؤدي الأمانة؟ حسم أمره أخيرًا بتنفيذ وصية هي أمانة حرية بأدائها دون تأخير لأنها وصية ميت.

طرقات على الباب كانت كفيلة بأن تتوجس الأم. ابتسم الابن قائلًا: ومتى كان العسكر يطرقون الباب، قبل أن يتقدم ويفتحه.

لحظات من الشعور المستعصي على الوصف سادت بينهما، طاف أحمد بخياله هل هذا ياسر؟ أم هو حلم جميل لقد مات ياسر الموتى لا يرجعون، أغمض عينيه عله يفتحهما على واقع جميل عن يمينه خديجة وعلى ذراعه أمل لا دماء ولا أشلاء القانون سارٍ على الكل لا يستثني أحدًا. أيقظه ملامسة جسد دافئ له معانقًا لم يجد بدًا من الدموع التي قيل أنها تغسل مجرى العين وربما غسلت الروح.

جرت بينهما أحاديث دامعة وضاحكة قبل أن يفترقا على وعد اللقاء إن شاء رب العباد.

ظل أحمد يراقب تغيرات البلاد على متن سيارة أجرة راجعًا إلى بيته الذي شهد فيه أيام زواجه الأولى وهاهو يعود إليه بعد أن تعلم درسًا لا يوجد على مقاعد الدرس، رغم شدة الشوق إلا أن رهبة اللقاء زادت من دقات القلب وأحس بلهفة تجتاح مجامع روحه. لمح من بعيد شارع بيته وما هي إلا لحظات حتى طرق الباب لم تفتح هي بل أمها، اختصر كثيرًا من عبارات الترحيب حتى يصل إلى شئ واحد: أين خديجة؟.

والدة زوجته: دخلت غرفتها قبل قليل.

وفي سيره نحو الغرفة لمح أمل نائمة على الأرض وسط ألعابها حملتها الجدة في عجالة لغرفتها واصل هو سيره وكأنه مقبل على حجرة امتحان هاجمه. ألم أسفل البطن قبل أن يفتح الباب بثوان.

دلف إلى الغرفة وجدها مستلقية على السرير هي كما شاهدها أول مرة بنفس ملامحها التي أحبها ثم أحبها حتى أدمنها لم يكن مجنونًا عندما لم يصرح بلسانه فهو يعرف أن هذا الحب تفضحه النظرات قبل العبارات والابتسامات قبل الكلمات فقط شئ ماء كان يمنع لسانه من النطق.

توسط الغرفة لمح قرص الدواء الطاولة، أما زال ذلك الصداع يزورها كل حين؟. شعرت بحركة أقدام حولها فقد كانت بين النوم واليقظة، فتحت عينيها رأته رغم ملامحه المتعبة وبشرته التي اسودت قليلًا، بدأ تحدث نفسها هل هذا حلم؟ هل نمت؟

اختلست نظرة أخرى كتلك التي اختلستها يوم جاءهم أحمد أول مرة لأمر الزواج برفقة أخيها، رغم شعورها أنه رجل فعلًا قوام عليها لكن كانت خائفة من ملامح الحزن في وجهه كلما حانت منه لحظة شرود في ذلك اللقاء المحفور في ذاكرتها بكل تفاصيله.

قررت أن تنهض عندما وجدت باب الغرفة مفتوحًا متحاملة على الم الرأس، كان يتأملها في صمت شعر بارتباكها آثر أخيرًا الكلام: السلام عليكم.

كلمات ردت فيها شئ فقدته منذ زمن، جرت عليه وسبقتها كلماتها: وعليكم السلام يا ح..... أوشكت أن تقولها ظهرت عليها علامات الخجل هل أصابني داء زوجي المشكوك فيه؟ أم أربكتها لحظات الطوفان وأرادت أن تعيش دور المستمع، مشاعر جاشت في نفسها.

أراد هو أن ينتشلها من خجلها نطق بها مباشرة : أحبك.

أراد أن ينزع منها الخجل فأرداها كما قتيلة وان كانت تبتسم في حياء، لم يدرك كيف أروت هذه الكلمة زهور قلبها حتى أينعت بل ذاب جبل الجليد حتى سال أودية وأنهارًا وعيونًا تجري على الأرض تلامس الضفاف برفق كما يلامس مشطها خصلات شعرها.

ليس من اللائق أن أبقى في الغرفة أكثر من ذلك لذلك جمعت أوراقي وحبري وتركتهما يعيشان هذه الفرحة ويحكيان لحظات الفرح والحزن بكل تفاصيلها، تارة بالنظرات والدموع وأخرى بالكلمات والزفرات. اضمر أن يحكي لها عن خوفه عندما كانوا في مكتب الضابط الحليق قبل بداية التحقيق، وأضمرت هي أن تحكي عن صدأ جملة الطوفان تلك.

(25)

بعد شهرين:

في سيارته التي نفض عنها الغبار تركب عن يمينه خديجة، والصغيرة في المقعد الخلفي، يشق طريقه قاصدا المدينة الساحلية في رحلة صيفية.
صاحت أمل: أريد علكة.

أوقف السيارة ونزل يشتري العلكة لمح عنوان لإحدى الصحف "تهمة تهريب جاسوس تتسبب في إعفاء ضابط كبير".

في المدينة الساحلية كانت المفاجأة تنتظر خديجة بوجود علي وأمها فزادت فرحتها رغم ما تحس به من وهن.

أخذت بالحديث مع والدتها بينما جلس أحمد وعلي يتبادلان أطراف الحديث، تم إعفاء ضابط قرأت هذا الخبر اليوم رد علي: هذا خبر قديم.

جاءت نحوهم خديجة وكانت تسمع ما يدور: ألم اقل أن هذا الصفحة تطوى.

رد أحمد ضاحكا: خديجة ضابط أمن المنزل، انفجر المنزل ضاحكا.

جاء الليل بسكونه لملم علي أشلاءه يفكر في زوجة تماثل خديجة، استلقي أحمد على فراشه يحاول نسيان الماضي والاستمتاع بهذه اللحظات، راحت خديجة في النوم رغم ما في جسدها من آلام وما في قلبها من آمال وأسرار.

.....

السلام عليكم:

تفضل:

الحقيقة أنا لست مريض أنا زوج خديجة _رحمها اللّه_ أريد أنا اعرف الحقيقة.

د. أمل: أحسن اللّه عزاءكم، زوجتك اللّه يرحمها كانت تتابع معي منذ أن جاءتني أول مرة تعاني من صداع متكرر وبعد الفحوصات اتضح أنها تعاني من ورم في مراحل متأخرة، والجراحة صعبة وأنا نصحتها بمحاولة العلاج بالخارج ومنذ ذلك الزمن انقطعت عني اخبرها.

أحمد داخل شقته متأملا حقيبة خديجة الصغيرة التي تضع فيها أوراقها المهمة نزلت الدمعة الأولى ثم الثانية أخيرا أجهش بالبكاء وكأنه يريد أن يعوض بكاء الأيام السابقة التي لم يبك فيها منذ أن جاء يوقظها صباحا فحسر الغطاء عن وجهها انقبض قلبه من تلك الابتسامة بالبادية على ثغرها، هزها برفق فلم تستجب ثم هزها بعنف قبل أن يصيح على أخيها الذي جاء ليثبت بدموعه التي تساقطت أنها فارقة الحياة بغير رجعة، رحلت وخلفت ذكريات كم هي مؤلمة بدونها.

رغم مشهد البكاء الذي أمامه من كل من في المنزل لكنه واقف كالصخر لا ادري بماذا يحس في تلك اللحظة فلا ترهقني أيها القارئ من أمري عسرا، هي تشاركه في كل شئ حتى الأحلام ربما فكر انه سيذكرها كل ما فتح باب الشقة وكل ما استلقى على فراشه يريد أن يحكي لنفسه حكاية النوم، لم يدرك في تلك اللحظة أن النسيان ملازم للإنسان وأن الأحزان كما الأفراح لا تدوم وكم من شاعر رثى زوجته ثم ما لبث غير بعيد أن تغزل في أخرى أو حتى تزوجها.

" ادفنوني حيث أموت" هذه العبارة يعرفها الجميع هرع الجميع لإجراءات الدفن بينما ظل أحمد يبحث في حقيبة أوراقها الخاصة، خواطر وكمية من

التحاليل الطبية أخذها وهرع مع الناس في عالم اللاشعور حيث لا يدري أين هو وماذا يفعل.

مازال أحمد في نوبة بكاء حارة ما لبث أن هدأ قليلا، هاجمه النعاس من كل مكان فمنذ يوم الوفاة لم ينم إلا بالأقراص المنومة بإصرار من علي، استسلم أخيرا للنوم.

تعال معي يا أحمد، أين أنت يا خديجة، في مكان جميل لا حروب فيه ولا أحزان، ما هذه الأزهار من حولك؟ زرعتها لك يا حبيبي عندما كنت في الشمال، مع السلامة، إلى تذهبين؟ تعالي، تعالي. ردت بابتسامتها المشرقة: لا يمكنني.